Middle East Journal of Humanities and Cultural Studies
Homepage: http://meijournals.com/ar/index.php/mejljs/index
ISSN: 2710-2238 (PRINT)
ISSN: 2788-4686 (ONLINE)
مجلة الشرق الأوسط
للعلوم الإنسانية والثقافية

الاستلزام الحواري في خطاب آيات الإعجاز القرآني

أ.م. د. حامد بدر عبد الحسين
كلية العلوم الإسلامية – جامعة بابل / العراق

استلام البحث: 20-06-2026 مراجعة البحث : 13-08-2026 قبول البحث: 20-09-2026

الملخص

شهدت الدراسات اللغوية الحديثة بروز اتجاهات بحثية أولت اهتماماً متزايداً بالوظيفة التواصلية والاجتماعية للغة، ولم تقتصر على دراسة بنيتها الشكلية، بل اتجهت إلى الكشف عن الأهداف والمقاصد التي يسعى المتكلم إلى تحقيقها من خلال خطابه. ويُعدّ الاستلزام الحواري أحد أبرز المفاهيم التداولية التي تسهم في تحقيق هذا التوجه؛ لما ينطوي عليه من آليات إجرائية تساعد على استكشاف المعاني والمضامين التي تتجاوز الدلالة المباشرة للألفاظ، فضلاً عن الكشف عن العلاقات المنطقية والمعرفية التي تسهم في تنظيم الخطاب وتأويله. ومن هذا المنطلق، يمثل الاستلزام الحواري محوراً أساسياً في التحليل التداولي للخطاب. يتناول هذا البحث الاستلزام الحواري في خطاب آيات الإعجاز القرآني، بوصفه من الموضوعات الأكثر ارتباطاً بطبيعة الدراسة التداولية، والأقدر على الكشف عن المقاصد الخطابية بعيداً عن الالتباس بمباحث تحليل الخطاب الأخرى. ويستند البحث إلى نظرية (غرايس) في مبدأ التعاون، وما يتفرع عنه من قواعد تخاطبية تمثل الإطار النظري الذي تُبنى عليه الدراسة، مع الإفادة من جهود (سيرل) في دراسة الأفعال الإنجازية ومفهوم الفعل الإنجازي الأولي.

الكلمات المفتاحية: الاستلزام – الخطاب – التداولية – الآية – الإعجاز.

Abstract:

Linguistic studies in the modern era have witnessed the emergence of a trend that focuses primarily on the communicative and social function of language, and the study of the goal of presenting a discourse, which in large part means the dialogical imperative, as it is one of the important pragmatic criteria in discourse analysis, as it includes the procedures used in Raising the elements of knowledge, including concepts and relationships, including logical relationships and how events are organized, is a characteristic of discourse based on the interpretation of each discourse. The dialogical imperative is one of the most important aspects of pragmatic analysis.

In this study, I will study the dialogical imperative in the discourse of the verses of the Qur'anic miracle because it attached them to the nature of research in it and kept them away from ambiguity in the field of discourse analysis, in light of standing on Grice's theory of the principle of (cooperation), and the rules branching from it that are considered the basis for that, and the efforts of (Searle) in the study of accomplished acts and introduced the concept of (the primary accomplishment act).

Keywords : obligation - discourse - pragmatics - verse – miracle.

المقدمة

القرآن الكريم هو الفضاء الاوسع، والنبع الثرّ الذي يستقي منه الباحثون موضوعاتهم في جميع العصور، وقد حظيت قضايا إعجاز النص القرآني بالعناية الكبرى التي لم يحظ بها نصّ آخر، وحاجة العربية كحاجة الإنسان إليه باقية ما بقيت

العربية، فدراسة الاستلزام الحواري في خطاب القرآن الكريم وتأمله، واستنباط أدواته في سياقه اللغوي على مستوى التنقيب والبحث في متون النصوص، والولوج في نسقه اللغوي للوصول الى مبادئ الاستلزام من جهة، وتحليل الخطاب في ضوء تفاعله مع الوجود الخارجي من جهة أخرى.

وتكمن تفاصيل هذا بالبحث بداية اعطاء لمحة نظرية حول الاستلزام الحواري ومبادئه، وصولا الى الجانب الاهم وهو التطبيقي الذي يكشف عن مكنونات هذا البحث، وخاصة ان الامر يتعلق بأقدس الكتب واهمها، وعلى هذا الاساس طريقنا في هذا الجانب سيكمن في اختيار الخطاب القرآني في ضوء مبادئ الاستلزام الحواري محللين الخطاب القرآني ومستعنين بكل ظروفه ثم توضيحه ثم تحليله وفق قواعد الاستلزام، ونستجلي منه الافكار التي تخدم موضوعنا، وينتهي المطاف بخاتمة للبحث.

أولاً: لمحة نظرية

لا تتعامل التداولية مع النصوص بوصفها تراكيب لغوية تتألف من كلمات وجمل وروابط نصية فحسب، كما هو الحال في بعض اتجاهات اللسانيات النصية، وإنما تنظر إليها باعتبارها نتاجاً لغوياً يصدر عن متكلم أو مبدع يمتلك قصداً معيناً، وينتج خطابه ضمن موقف كلامي محدد، تحكمه ظروف زمانية ومكانية، ويتوجه إلى متلقٍ بعينه. ومن ثم، فإن فهم النص لا يتحقق من خلال تحليل مكوناته اللغوية وحدها، بل يتطلب استحضار القصدية والسياق الذي نشأ فيه الخطاب، فضلاً عن طبيعة العلاقة بين أطراف العملية التواصلية.[1]

وتؤدي القصدية دوراً أساسياً في تحقيق الترابط بين مكونات النص، وفي هذا الإطار يطرح (هانسون Hansson) تصوراً يقوم على تحقيق التكامل النسقي بين أجزاء النص من خلال مستويات تداولية متعددة. يتمثل المستوى الأول في دراسة الرموز الإشارية والتعبيرات التي لا تتحدد دلالتها بصورة نهائية إلا بالرجوع إلى ظروف استعمالها وسياق التلفظ بها، ويشمل ذلك الأشخاص والأشياء والإحالات المرتبطة بالزمان والمكان. أما المستوى الثاني، فيُعنى بدراسة كيفية ارتباط القضايا التي تتضمنها الجملة المنطوقة بالسياق الذي يدركه المتخاطبون، وما يتصل بذلك من معلومات واعتقادات سابقة. في حين

[1] أحمد كنون، **التداولية بين النظرية والتطبيق**، دار النابغة للنشر والطباعة، مصر، ط١، ٢٠١٥م، ص ٩١.

يتناول المستوى الثالث نظرية أفعال اللغة، وما تتضمنه من أهمية للإشارات والعناصر التداولية في بناء المعنى وتحقيق التواصل.[2]

يُعدّ الاستلزام الحواري من المفاهيم المحورية في الدرس التداولي، وأكثرها اتصالاً بطبيعة البحث في المقاصد التواصلية للخطاب. وقد ارتبط ظهور هذا المفهوم بجهود الفيلسوف اللغوي (بول غرايس)، ولا سيما المحاضرات التي ألقاها في جامعة هارفارد سنة ١٩٦٧م، والتي تناول فيها الأسس النظرية للاستلزام الحواري، قبل أن تُنشر أجزاء منها سنة ١٩٧٥م ضمن بحثه الموسوم بـ(المنطق والحوار).

ويمكن تعريف الاستلزام الحواري بأنه: «إنتاج معنى أو استلزام شيء من خلال التلفظ بشيء آخر، أي إنه معنى يقصده المتكلم أو يلمّح إليه أو يقترحه، من غير أن يكون جزءاً من الدلالة الحرفية المباشرة للجملة».[3]

ويرتبط الاستلزام الحواري ارتباطاً وثيقاً بالسياقات الداخلية للخطاب، وبما تحققه اللغة من وظائف تأثيرية من خلال صيغها المختلفة، كالاستفهام والأمر والنهي والنداء وغيرها. ولا تقتصر آلياته على المعاني الظاهرة التي تحملها هذه الصيغ، بل تمتد لتشمل المضامين التي تستبطنها البنى الخطابية، والتي يتطلب إدراكها وعياً من أطراف العملية التواصلية بطبيعة المقام والقرائن المصاحبة له. فقد لا يمتلك المتكلم في بعض المواقف مساحة كافية للتعبير المباشر عن جميع أفكاره، فيلجأ إلى وسائل تعبيرية بديلة، مثل التكثيف والإيجاز والإطناب، فضلاً عن توظيف المضمرات والإيحاءات الدلالية التي تمنح الخطاب أبعاداً إضافية، وتسهم في التأثير في المتلقي وتوجيه فهمه.

وينطلق الاستلزام الحواري من مبدأ عام يقوم على ضرورة تعاون أطراف العملية التخاطبية من أجل بلوغ الغاية المنشودة من الحوار، وقد أطلق (غرايس) على هذا الأساس مصطلح (مبدأ التعاون Principle of Cooperation).[4]

ويقوم التصور الأساسي لهذا المبدأ على أن نجاح التفاعل الحواري يرتبط بوجود تعاون بين المشاركين فيه، بحيث يسعى كل طرف إلى تقديم مساهمة تتناسب مع الغرض من الحوار، وأن تكون مقاصد المتخاطبين واضحة، أو أن يكون اتجاهها العام قابلاً للإدراك من الطرف الآخر.[5]

---

[2] فرانسواز أرمينكو، **المقاربة التداولية**، ترجمة: د. سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، ط١، ١٩٨٦م، ص ٢١.

[3] صلاح إسماعيل، **نظرية المعنى في فلسفة بول غرايس**، دار القباء الحديثة، ط١، ٢٠٠٧م، ص ٧٨.

[4] محمود أحمد نحلة، **آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر**، دار المعرفة الجامعية، مصر، (د.ط)، ٢٠٠٢م، ص ٣٤؛ وينظر: د. طه عبد الرحمن، **في أصول الحوار وتجديد علم الكلام**، المركز الثقافي العربي، ط٢، ٢٠٠٠م، ص ١٠٣.

مبدأ التعاون وفروعه

يمكن توضيح مبدأ التعاون والقواعد المتفرعة عنه على النحو الآتي:[6]

يقوم مبدأ التعاون على قاعدة تخاطبية عامة مفادها: «ليكن انتهاضك للتخاطب على الوجه الذي يقتضيه الغرض منه».[7] ويعني ذلك أن أطراف الحوار مطالبون بالتفاعل والتعاون فيما بينهم من أجل الوصول إلى الغاية التي من أجلها نشأ التخاطب، بحيث تكون مساهمة كل طرف منسجمة مع الهدف الذي يسعى المتحاورون إلى تحقيقه.[8]

وتحدد مبادئ غرايس مجموعة من القواعد التي ينبغي مراعاتها لتحقيق التواصل بصورة مثلى، إلا أن الالتزام بها لا يُعد شرطاً ثابتاً في جميع المواقف الخطابية؛ إذ قد يتعمد المتكلم مخالفة إحدى هذه القواعد لتحقيق غرض تواصلي معين. ويحدث ذلك عندما لا يكون المقصود من الخطاب مطابقاً تماماً للدلالة الحرفية للألفاظ، الأمر الذي يستدعي الرجوع إلى القرائن السياقية وملابسات الموقف والعرف التخاطبي من أجل الوصول إلى المعنى الذي يريده المتكلم.[9]

وبناءً على ذلك، فإن الاستلزام الحواري يرتبط بإمكانية خرق إحدى قواعد مبدأ التعاون، إذ لا تتحقق فاعليته بالضرورة من خلال الالتزام الحرفي بجميع القواعد، وإنما قد يكون تجاوز إحداها وسيلة لإنتاج معنى ضمني يخدم المقصد التواصلي للخطاب.

ويتفرع مبدأ التعاون إلى أربعة مبادئ تخاطبية أساسية، هي: مبدأ الكم، ومبدأ الكيف، ومبدأ العلاقة، ومبدأ الطريقة.

ثانياً: مبدأ الكم

يُعدّ مبدأ الكم أحد المكونات الأساسية للاستلزام الحواري، ويتصل بمقدار المعلومات التي يقدمها المتكلم في أثناء عملية التواصل. ويقتضي هذا المبدأ أن تكون المساهمة الكلامية بالقدر الذي تتطلبه طبيعة الحوار، بحيث لا تتضمن معلومات زائدة عن الحاجة، ولا تقل عن المقدار الضروري لتحقيق الغرض التخاطبي.[10]

---

[5] العياشي أدواري، **الاستلزام الحواري في التداول اللساني**، منشورات الاختلاف، بيروت، ط١، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م، ص ٩٨.

[6] أحمد المتوكل، **اللسانيات الوظيفية: مدخل نظري**، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط٢، ٢٠١٠م، ص ٢٦-٢٧؛ وينظر: العياشي أدواري، **الاستلزام الحواري في التداول اللساني**، مصدر سابق، ص ٩٩-١٠٠.

[7] د. طه عبد الرحمن، **اللسان والميزان أو التكوثر العقلي**، المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء، ط٣، ٢٠١٢م، ص ٢٣٨.

[8] العياشي أدواري، **الاستلزام الحواري في التداول اللساني**، مصدر سابق، ص ٩٨.

[9] نادية رمضان النجار، **الاتجاه التداولي والوظيفي في الدرس اللغوي**، مؤسسة حورس الدولية، ط١، ٢٠١٣م، ص ٨١.

[10] د. مسعود صحراوي، **التداولية عند العلماء العرب**، دار الطليعة، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م، ص ٣٤.

وبعبارة أخرى، ينبغي أن يكون الخطاب مفيداً ومعبّراً عن المطلوب، وأن يتناسب حجمه المعلوماتي مع طبيعة المقام، دون زيادة أو نقصان.[11]

وقد يحدث خرق هذا المبدأ من خلال صورتين متقابلتين:

• الصورة الأولى: تقديم معلومات تتجاوز القدر المطلوب، وهو ما يتحقق عن طريق الإطناب والتوسع في عرض المعاني.

• الصورة الثانية: تقديم معلومات أقل من المقدار المتوقع، وهو ما يظهر في الإيجاز والاختصار.

وتتمثل القاعدتان الأساسيتان لمبدأ الكم فيما يأتي:

أ- أن يقتصر المتكلم على تقديم المعلومات التي تتطلبها الحاجة التخاطبية، وبالقدر الذي يحقق الغرض من التواصل.

ب- ألّا يتجاوز المتكلم في إفادته مقدار المعلومات المطلوبة.

وقد حظيت هذه القاعدة باهتمام عدد من الباحثين في الدراسات اللغوية، ومنهم (شاهر الحسن) في كتابه (علم الدلالة السمانتيكية والبراجماتية في اللغة العربية)، إذ يؤكد ضرورة أن تكون مساهمة أطراف الحوار كافية لتحقيق المقصود، من غير إفراط أو تفريط في تقديم المعلومات.[12]

وقد ظهر خرق مبدأ الكم في خطاب التحدي الموجّه إلى الكافرين، كما في قوله تعالى:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٣-٢٤)

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾، يذكر النحويون أن أداة الشرط (إن) لم ترد هنا للدلالة على الشك، لأن الله تعالى يعلم أنهم واقعون في الريب، وإنما جاء استعمالها موافقاً لما جرت عليه عادة العرب في التخاطب، كما في قول القائل: (إن كنت إنساناً فافعل كذا)، مع علمه المسبق بأن المخاطب إنسان، أو قوله: (إن كنت ابني فاعطف عليّ).[13]

---

[11] روبرت دي بوجراند، **النص والخطاب والإجراء**، ترجمة: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م، ص ٤٩٥.

[12] شاهر الحسن، **علم الدلالة السمانتيكية والبراجماتية في اللغة العربية**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمّان، ط١، ٢٠٠١م، ص ١٦٩.

[13] أبو الحسن الواحدي (ت ٤٦٨هـ)، **التفسير البسيط**، تحقيق: عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١، ١٤٣٠هـ، ج ٢، ص ٢٣١-٢٣٢.

ويمثل هذا الخطاب انتقالاً إلى إثبات الجانب الثاني من الإيمان، بعد أن سبق إثبات الجانب الأول من خلال قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]. ويأتي هذا الانتقال في سياق الاستدلال على وحدانية الله تعالى، ولا سيما أن النهي عن اتخاذ الأنداد والشفعاء جاء في خطاب قد يثير إنكار المخاطبين، الأمر الذي اقتضى إقامة الحجة عليهم وإظهار عجزهم عن معارضة القرآن الكريم.[14]

ومن خلال تأمل الآية الكريمة، يتضح أن الخطاب يتضمن خرقاً لمبدأ الكم عن طريق تقديم مجموعة من المعلومات المتتابعة التي تتجاوز مجرد توجيه التحدي إلى الكافرين؛ إذ لم يقتصر النص على مطالبتهم بالإتيان بسورة مماثلة للقرآن الكريم، بل أضاف إلى ذلك دعوتهم إلى الاستعانة بمن يستطيعون من أعوان وأنصار، كما في قوله تعالى: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، وهو ما يوسع دائرة التحدي ويجعل المواجهة قائمة على الاستعانة بجميع الإمكانات المتاحة لهم.

ويتضمن الخطاب معنى ضمنياً يتمثل في أن الإتيان بمثل القرآن أمر خارج عن قدرة البشر، وأن صدق دعواهم لا يمكن إثباته إلا إذا تمكنوا من تحقيق هذا التحدي. ويتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، ثم ينتقل السياق إلى بيان النتيجة المترتبة على عجزهم من خلال قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾، أي إذا لم تتمكنوا من الإتيان بسورة تماثل سور القرآن الكريم، وعجزتم عن ذلك على الرغم من الاستعانة بالفصحاء والبلغاء وأصحاب القدرة البيانية.[15]

ويظهر خرق آخر لمبدأ الكم في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾، إذ لا يقتصر الخطاب على تقرير عجز المخاطبين في الوقت الحاضر، بل يمتد إلى المستقبل، مؤكداً استحالة قدرتهم على الإتيان بمثله في الأزمنة اللاحقة. ويأتي هذا التركيب الاعتراضي ليؤكد استمرار عجز البشر عن معارضة القرآن الكريم، وهو ما يتجلى أيضاً في قوله تعالى: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وتؤدي أداة (لن) في هذا السياق وظيفة النفي المؤكد للفعل في المستقبل، بما يعزز دلالة التحدي ويجعل الخطاب تقريراً جازماً باستمرار عجز البشر عن الإتيان بمثل القرآن الكريم، مهما بلغت قدراتهم اللغوية والبيانية.

ومن ثم، فإن خرق مبدأ الكم في هذه الآية يتمثل في تقديم مقدار واسع من المعلومات التي تتجاوز أصل التحدي، لتشمل الدعوة إلى الاستعانة بالآخرين، وتقرير العجز في الحاضر والمستقبل، ثم الانتقال إلى التحذير من عاقبة الإصرار على

[14] الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣هـ)، **التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)**، الدار التونسية للنشر، تونس، ط٢، ١٩٨٤م، ج ١، ص ٣٣٥.

[15] محمد علي الصابوني، **صفوة التفاسير**، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م، ج ١، ص ٣٥-٣٦.

التكذيب. وقد جاء هذا التوسع منسجماً مع طبيعة المقام الذي يقتضي إقامة الحجة والرد على اتهام القرآن الكريم، وإظهار عجز المخاطبين عن معارضته.

ويمكن عرض التحليل التداولي للآية وفق عناصر الاستلزام الحواري على النحو الآتي:

العنصر	التحليل
الاقتضاء	يستقر في ذهن المتكلم والمخاطب أن الأمر المطروح ليس من الوقائع المألوفة أو الأحداث المتكررة التي اعتاد الناس مشاهدتها؛ فالتحدي الوارد في النص القرآني يتجاوز القدرة البشرية المعتادة. وتتحقق الاستفادة من هذا الخطاب من خلال إشراك المتلقين، سواء أكانوا على معرفة مسبقة بقواعده أم لم يكونوا كذلك، لأنه خطاب عام يتجاوز حدود عصر معين ليشمل مختلف العصور.
الاستلزام الحواري	المعنى الصريح: الريب هو الشك. المعنى الضمني: صُوّر الريب في الآية وكأنه ظرف يحيط بالمخاطبين، بمنزلة المكان الذي يوجدون فيه، للدلالة على كثرة وقوعهم في الشك.
خرق القاعدة	مبدأ الكم: خرق من خلال تقديم قدر كبير من المعلومات.
القوة الإنجازية	يتضمن الخطاب تحدياً للمخاطبين، يتمثل في مطالبتهم بالإتيان بسورة مماثلة لما أنزله الله تعالى على نبيه، إذا كانوا صادقين في ادعائهم.
القوة التأثيرية	يسهم الخطاب في إقامة الحجة على المخاطبين وإزالة أعذارهم، من خلال إثبات عجزهم عن معارضة القرآن الكريم، بعد الاحتجاج عليهم في توحيد الألوهية والربوبية.

ويعود سبب هذا الخرق إلى طبيعة المقام الخطابي الذي استدعى تقديم معلومات متعددة ومكثفة، استثمرها منشئ الخطاب في بناء موقف تواصلي مؤثر. وقد تداخلت في هذا السياق مجموعة من المقاصد، تراوحت بين إثارة الشك لدى المخاطب،

ونفي قدرته على المعارضة، وتقرير العجز بصورة جازمة. وتبرز القوة الإنجازية في هذا الخطاب من خلال صيغة التحدي التي تصدرت بنيته وأدت دوراً أساسياً في توجيه المتلقي نحو المقصد المراد.

خرق مبدأ الكم عن طريق تقديم قدر قليل من المعلومات (الإيجاز)

يمكن ملاحظة الصورة الأخرى من خرق مبدأ الكم، والمتمثلة في تقليل المعلومات المقدمة، في قوله تعالى:

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (يونس: ٣١)

يكشف هذا النص عن توظيف الإيجاز بوصفه وسيلة تخاطبية تحقق المقصد التداولي بأقل قدر من المعلومات اللفظية. فالخطاب يشتمل على عناصر العملية التواصلية الأساسية، المتمثلة في المتكلم والمخاطب والرسالة والمقام، إلا أن بناءه لا يقوم على التفصيل المطول، وإنما يعتمد على طرح مجموعة من الأسئلة الموجزة التي تفتح المجال أمام المتلقي للتفكير والاستنتاج.

ويؤدي هذا الاختصار وظيفة تداولية مهمة؛ إذ يمنح المتلقي فرصة للتأمل في المعاني واستكشاف المقاصد التي يتضمنها النص، فيتحول من مجرد متلقٍ للمعلومات إلى مشارك في إنتاج المعنى واستنباطه. وبهذا يصبح الإيجاز وسيلة لتحفيز النشاط الذهني، ودفع المخاطب إلى البحث في دلالات الخطاب واستجلاء مضامينه.[16]

ولا يتوجه هذا الخطاب إلى شخص محدد، بل يشمل عموم المخاطبين، إذ ينتقل السياق من غرض إلى آخر ضمن أساليب إبطال الشرك وإثبات وحدانية الله تعالى. ويستند الاحتجاج في الآية إلى جملة من النعم والقدرات الإلهية، تتمثل في إنزال الرزق من السماء والأرض، ومنح الإنسان حاستي السمع والبصر، وإخراج الحي من الميت والميت من الحي، فضلاً عن تدبير شؤون الكون وتنظيمه.

ويخرج الاستفهام في هذا السياق عن دلالته الأصلية المتمثلة في طلب المعرفة، ليؤدي وظيفة الاستفهام التقريري الذي يهدف إلى حمل المخاطب على الإقرار بحقيقة يعرفها مسبقاً. وقد جاء الاستدلال في صورة سؤال وجواب، الأمر الذي

[16] بان الخفاجي، **مراعاة المخاطب في النحو العربي**، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٨م، ص ٦٧–٦٨.

يمنح الحجة قوة تأثيرية أكبر في نفوس السامعين؛ لأن عرض القضايا العلمية والعقدية في صورة حوارية يساعد على ترسيخها في الأذهان، ويجعلها أكثر قدرة على الإقناع.[17]

ويتضح أن الانتقال من الدلالة الأصلية إلى الدلالة الفرعية للاستفهام قد أدى وظيفة تداولية تتناسب مع طبيعة الخطاب، إذ اعتمد النص على عبارات موجزة، منها: ﴿يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، و﴿يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾، و﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾، و﴿يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾. وقد أسهم هذا التركيز في تقديم الأدلة بصورة مختصرة، مع ترك مساحة ذهنية للمتلقي يستكمل من خلالها المعاني التي لم يُصرَّح بها تفصيلاً.

ويتناسب هذا الأسلوب مع طبيعة الاستلزام الحواري؛ إذ إن خرق مبدأ الكم من خلال تقليل المعلومات لا يعني ضعف الخطاب أو نقص دلالته، بل قد يكون الإيجاز وسيلة لإبلاغ أكبر قدر من المعاني بأقل جهد تعبيري ممكن. وفي هذا السياق، يؤكد عبد السلام المسدي أن مستعمل اللغة الطبيعية يميل إلى بناء كلامه بما يتيح له إيصال أكبر كمية من المعلومات بأقل قدر ممكن من الجهد الأدائي.[18]

ويمكن توضيح التحليل التداولي للآية وفق عناصر الاستلزام الحواري في الجدول الآتي:

العنصر	التحليل
الاقتضاء	يتضمن الخطاب إجابات عن تساؤلات ينبغي للإنسان أن يتأملها في ذاته، وأن يصل إلى إدراكها من خلال النظر في نفسه وفي مظاهر ملكوت السماوات والأرض، وما يقع ضمن نطاق إدراكه وتأمله.
الاستلزام الحواري	المعنى الصريح: (قُلْ) فعل أمر. المعنى الضمني: توجيه الخطاب إلى الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) ليخاطب المعاندين من أهل مكة.
خرق القاعدة	مبدأ الكم: خرق من خلال تقديم قدر محدود من المعلومات، اعتماداً على الإيجاز.

[17] الطاهر بن عاشور، **التحرير والتنوير**، مصدر سابق، ج ١١، ص ١٥٥.

[18] عبد السلام المسدي، **التفكير اللساني في الحضارة العربية**، الدار العربية للكتاب، ط١، ١٩٨١م، ص ٣٣٢.

العنصر	التحليل
القوة الإنجازية	يعبر الخطاب عن قدرة الله تعالى ورحمته، من خلال عرض مظاهر رزقه وملكيته وتدبيره لشؤون الكون.
القوة التأثيرية	توجيه الحجة إلى المخاطبين اعتماداً على ما أقروا به من توحيد الربوبية، للوصول إلى إثبات ما أنكروه من توحيد الألوهية.

نموذج آخر لخرق مبدأ الكم

ومن المواضع التي يظهر فيها خرق مبدأ الكم قوله تعالى:

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۝ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ (مريم: ٧-٩)

يتجلى في هذا الخطاب توظيف الإيجاز بوصفه آلية تواصلية تسهم في جذب انتباه المخاطب وتحفيزه على الاستجابة لمضمون الرسالة. فقد جاء التعبير القرآني مكثفاً، إذ لم يتوسع الخطاب في تقديم تفاصيل البشارة، بل عرض مضمونها بصورة مباشرة وموجزة، كما في قوله تعالى: ﴿اسْمُهُ يَحْيَى﴾، وهو ما يعكس سرعة انتقال الخطاب إلى بيان النتيجة وتأكيد تحقق الأمر الإلهي.

ولا يقتصر الأمر على ذلك، بل يظهر في سياق الحوار بين الله تعالى ونبيه زكريا (عليه السلام)، إذ عبّر النبي عن تساؤله بقوله: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾، مستحضراً حالته وحالة زوجته، في حين جاء الجواب الإلهي موجزاً وحاسماً: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾. ويكشف هذا التتابع الحواري عن قدرة الإيجاز على نقل المعنى وإقامة الحجة دون الحاجة إلى تفصيل مطول.

وقد بلغت الآيات مستوى رفيعاً من الإبداع البياني من خلال توظيف الإيجاز في قوله تعالى: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾؛ إذ قد يبدو من ظاهر العبارة أن النبي زكريا يستبعد تحقق البشارة، غير أن هذا المعنى لا ينسجم مع مقام النبوة والتصديق بالقدرة الإلهية. ولذلك يمكن فهم السؤال على أنه استفسار عن كيفية وقوع الأمر مع وجود الموانع الظاهرة، كالعقم وتقدم السن، لا على أنه إنكار لإمكان تحقق البشارة. وقد جاء الجواب ليزيل الإشكال، مؤكداً أن تحقق الولد ممكن بإرادة الله تعالى، على الرغم من الظروف القائمة.[19]

ويبرز في قوله تعالى: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ تساؤل يرتبط بالحالة النفسية للنبي زكريا، وبما يحيط به من ظروف تتعلق بتأخر الإنجاب. ويأتي هذا التساؤل متبوعاً بجواب إلهي مستقل في قوله: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، إذ تؤدي هذه الجملة وظيفة تفسيرية وإقناعية، وتجيب عن سؤال مقدر يتعلق بكيفية وقوع البشارة مع وجود تلك الموانع.

ومن ثم، فإن الإيجاز في هذا الموضع لا يمثل مجرد اختصار لغوي، بل يشكل استراتيجية خطابية تقوم على حذف التفاصيل التي يمكن استنتاجها من السياق، مع المحافظة على وضوح المقصد. وهذا ما يجعل الخطاب أكثر قدرة على مراعاة مقتضيات المقام، واستثمار القرائن الدلالية في توجيه فهم المتلقي. وفي هذا السياق، يُنظر إلى التحاور بوصفه علاقة تتجاوز مجرد تبادل الكلام بين متخاطبين، لتشمل التفاعل القصدي والموضوعي بين المشاركين في إنتاج المعنى وتقديره.[20]

ثالثاً: مبدأ الكيف

يقوم مبدأ الكيف على ضرورة أن يكون المتكلم صادقاً فيما يقدمه من معلومات، وأن يتجنب الإدلاء بأقوال يعتقد أنها غير صحيحة أو لا يمتلك دليلاً واضحاً يؤيدها. ويتضمن هذا المبدأ قاعدتين أساسيتين: الأولى ألا يقول المتكلم ما يعلم أنه كاذب، والثانية ألا يذكر أمراً لا تتوافر لديه أدلة كافية لإثباته. وقد يرتبط خرق هذا المبدأ في الخطاب القرآني باستخدام الصور البيانية، مثل التهكم والتعريض والكناية والاستعارة والتشبيه والتلويح والمبالغة، إذ قد يتجاوز المعنى المقصود الدلالة المباشرة للألفاظ ليحمل دلالات ضمنية تتطلب من المتلقي التأمل والتفسير.

[19] محمود بن عبد الرحيم صافي (ت ١٣٧٦هـ)، **الجدول في إعراب القرآن الكريم**، دار الرشيد، دمشق، ومؤسسة الإيمان، بيروت، ط٤، ١٤١٨هـ، ج ٦، ص ٧٣.

[20] عمّارية حاكم، **الخطاب الإقناعي في ضوء التواصل اللغوي: دراسة لسانية تداولية في الخطابة العربية أيام الحجاج بن يوسف الثقفي**، دار العصماء، دمشق، ط١، ٢٠١٤م، ص ٢٧٥.

وقد أشار عادل فاخوري إلى أن مبدأ الكيف يرتبط بصدق القول ومدى توافر الأدلة التي تسنده، كما تناول طه عبد الرحمن هذا الجانب في حديثه عن اللسان والميزان، وأوضح شاهر الحسن أهميته في الدلالة السمانتيكية والبراجماتية. ويُستفاد من ذلك أن المتكلم ينبغي ألا يقرر ما يعلم كذبه، وألا يدعي ما لا يملك عليه برهاناً واضحاً.[21]

ومن الشواهد القرآنية التي يمكن تناولها في ضوء هذا المبدأ قوله تعالى في سورة الحج:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (الحج: ٧٣)

يتضمن ظاهر الخطاب القرآني توجيهاً إلى الناس للاستماع إلى المثل الذي ضربه الله تعالى، وهو مثل يكشف عجز المعبودات التي يتخذها المشركون من دون الله؛ فهي لا تستطيع خلق ذبابة، حتى لو اجتمعت جميعها لتحقيق ذلك، كما أنها تعجز عن استرداد شيء يسلبه الذباب منها. ويكشف هذا التصوير عن ضعف تلك المعبودات وعجزها، في مقابل قدرة الله تعالى.

أما من حيث الاستلزام الحواري، فإن الخطاب لا يقتصر على بيان العجز المادي للأصنام، بل يتضمن دلالة أعمق تتمثل في إبطال الاعتقاد بقدرتها واستحقاقها للعبادة. ويظهر ذلك من خلال ضرب المثل بأضعف المخلوقات، وهو الذباب، لتوضيح أن ما لا يستطيع خلق هذا الكائن أو استرداد ما يسلبه لا يستحق أن يكون معبوداً.

ويُلاحظ أن الخطاب يحافظ على دلالته الظاهرة من خلال المثل القرآني، إلا أن المعنى الضمني يتجاوز مجرد وصف عجز الأصنام إلى تسفيه عبادتها وقطع أمل المشركين في نفعها. ويمكن فهم المثل من وجهين: أولهما إظهار تفاهة عبادة ما يعجز عن خلق أضعف المخلوقات، وثانيهما بيان انقطاع رجاء المشركين في أن تحقق أصنامهم لهم منفعة أو تدفع عنهم ضرراً.[22]

---

[21] ينظر: عادل فاخوري، **تيارات في السيمياء** (أو ما أشار إليه الباحث في مبحث مبدأ الكيف)؛ ود. طه عبد الرحمن، **اللسان والميزان أو التكوثر العقلي**، مصدر سابق؛ وشاهر الحسن، **علم الدلالة السمانتيكية والبراجماتية في اللغة العربية**، مصدر سابق. *(ملاحظة منهجية: البيانات التفصيلية لكتاب عادل فاخوري لم ترد في المسودة الأصلية وتستوجب الإضافة عند الطباعة النهائية).*

[22] استُخلصت هذه الدلالة التفسيرية من سياق المثل في المصادر الموثقة في الهامش اللاحق.

تحليل الاستلزام الحواري في آية الذباب:

العنصر	التحليل
الاقتضاء	يتضمن الخطاب ضرب مثل يوضح حال من يعبد الأصنام التي لا تستطيع خلق ذبابة، كما يثير تساؤلات ضمنية بشأن جدوى عبادتها مع ثبوت عجزها.
الاستلزام الحواري	المعنى الصريح: النداء في قوله تعالى: «يا أيها الناس». أما المعنى الضمني فيتجه إلى مخاطبة الكفار، ولا سيما مشركي قريش، وتنبيههم إلى بطلان عبادتهم.
خرق القاعدة	يرتبط بمبدأ الكيف، إذ يعتمد الخطاب على ضرب المثل لإظهار حقيقة عجز الأصنام، مع بقاء الدلالة الظاهرة واضحة في سياقها.
القوة الإنجازية	يتضمن الخطاب طلباً غير مباشر بترك عبادة غير الله تعالى، والتنبيه إلى عدم استحقاق الأصنام للعبادة.
التأثيرية	يسهم الخطاب في إثبات قدرة الله تعالى وإظهار عجز الأصنام عن خلق ذبابة، بما يؤثر في اعتقاد المتلقي ويدعوه إلى إعادة النظر في عبادته.

وقد تناولت مصادر التفسير وإعراب القرآن بيان دلالات هذه الآية ووجوهها البيانية.[23]

ومن الشواهد الأخرى التي تتضمن صوراً بيانية ذات دلالات ضمنية قوله تعالى في سورة النور:

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (النور: ٤٠)

[23] نخبة من أساتذة التفسير، **التفسير الميسر**، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية، ط٢ مزيدة ومنقحة، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م، ج ١، ص ٣١٤-٣١٥؛ وأبو منصور محمد بن محمد الماتريدي (ت ٣٣٣هـ)، **تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)**، تحقيق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، ج ٧، ص ٤٤٣؛ ومحمود بن عبد الرحيم صافي، **الجدول في إعراب القرآن الكريم**، مصدر سابق، ج ١٧، ص ١٥٠.

يتناول هذا التصوير القرآني مشهداً بالغ العمق، إذ تتراكم الظلمات في البحر العميق، وتتداخل الأمواج والسحب، حتى يصبح الإنسان عاجزاً عن رؤية يده. ويُستفاد من هذا المشهد في بيان حالة الضلال والافتقار إلى الهداية، حيث تتجسد الظلمات الحسية في صورة تعبيرية توضح الظلمات المعنوية التي تحيط بمن حُرم نور الهداية.

ويقوم البناء التصويري في الآية على التشبيه التمثيلي؛ إذ تُعرض الحالة المعنوية من خلال صورة حسية مركبة، تتضافر عناصرها لتقديم معنى الضياع والحرمان من النور. ومن ثم لا يقتصر الخطاب على وصف الظلمات في البحر، بل يتجاوز ذلك إلى تصوير حال من لا يهتدي بنور الله تعالى.[24]

> ملاحظة توثيقية: ورد في النص الأصلي تفسير متعلق بقوله تعالى: «الذين كفروا أعمالهم كسراب...» ثم أُحيل التحليل إلى صورة الظلمات في البحر الواردة في الآية (٤٠) من سورة النور. وهذان شاهدان مختلفان من السورة نفسها؛ فالأول في الآية (٣٩)، والثاني في الآية (٤٠). لذلك ينبغي الفصل بينهما عند إعداد النسخة النهائية، حتى تتطابق الآية مع التحليل والتفسير الخاص بها.

ومن الشواهد التي تتجلى فيها الصور البيانية قوله تعالى في سورة فصلت:

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ، فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (فصلت: ١١–١٢)

تتضمن الآيتان مجموعة من الأساليب البلاغية التي تسهم في تشكيل المعنى وإبراز قدرة الله تعالى في خلق السماوات والأرض. ففي قوله تعالى: «وهي دخان» يظهر التصوير التشبيهي الذي يقرب هيئة السماء في بداية خلقها إلى ذهن المتلقي، من خلال وصفها بالدخان. كما يتضمن قوله: «استوى إلى السماء» تعبيراً ذا دلالة تصويرية، يبرز التوجه إلى خلق السماء وتدبير أمرها.

[24] أبو زيد عبد الرحمن الثعالبي (ت ٨٧٥هـ)، **جواهر الحسان في تفسير القرآن**، تحقيق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ، ج ٧، ص ١١٠؛ ومحمود بن عبد الرحيم صافي، **الجدول في إعراب القرآن الكريم**، مصدر سابق، ج ١٨، ص ٢٧١.

ويظهر التصوير البلاغي كذلك في قوله تعالى: «ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين»، إذ أُسند القول والإتيان إلى السماء والأرض، وهما من غير ذوات الإدراك البشري، في صورة تشخيصية تمنحهما صفات الكائن العاقل. ويؤدي هذا الأسلوب وظيفة دلالية تتمثل في إبراز خضوع الكون كله لأمر الله تعالى، سواء أكان ذلك طوعاً أم كرهاً.

كما يظهر الطباق بين لفظتي «طوعاً» و«كرهاً»، بما يعزز المعنى ويؤكد شمول الأمر الإلهي. وفي قوله تعالى: «وزينا السماء الدنيا» يظهر الالتفات من ضمير الغيبة إلى ضمير التكلم، وهو انتقال أسلوبي يسهم في إبراز عظمة الفعل الإلهي وتأكيده.[25]

وتتضح الصور البيانية أيضاً في قوله تعالى:

﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ (الأنعام: ١٢٥)

تقوم الصورة في هذه الآية على التشبيه التمثيلي؛ إذ شُبّهت حالة ضيق صدر الإنسان الذي يُراد به الضلال بحالة من يحاول الصعود في السماء، وهو أمر يتعذر عليه أو يشق بصورة بالغة. وبذلك ينتقل الخطاب من المعنى المعنوي المتمثل في ضيق الصدر إلى صورة حسية يمكن للمتلقي تصورها، مما يعمق إدراكه لشدة الضيق وصعوبة احتماله.[26]

ومن الشواهد الأخرى قوله تعالى في سورة يس:

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ...﴾ (يس: ٣٧–٤٠)

يبرز في قوله تعالى: «نسلخ منه النهار» أسلوب الاستعارة المكنية، إذ صُوّر النهار بشيء يُسلخ عن الليل، كما يُسلخ الجلد عن الجسد، في مشهد حسي يوضح تعاقب الليل والنهار. وتقوم هذه الصورة على نقل المعنى من المجال المحسوس إلى ظاهرة كونية تتكرر أمام الإنسان، مما يجعل دلالة الآية أكثر تأثيراً في المتلقي.

كما يتضمن السياق تشبيهاً للهلال بالعرجون القديم، حيث تُقارب هيئة القمر في آخر الشهر هيئة العرجون اليابس المنحني. ويضاف إلى ذلك ما ورد في الآيات من تصوير لحركة الشمس والقمر وانتظامهما، وعدم سبق أحدهما الآخر، بما يكشف عن النظام الدقيق الذي تنتظم به الظواهر الكونية.

---

[25] ينظر: محيي الدين الدرويش، **إعراب القرآن وبيانه**، ج ٨، ص ٥٣٧؛ و**القرآن وعلم النفس**، ص ١٢٦؛ و**أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية**، ج ١، ص ٤٩٢. *(ملاحظة منهجية: وردت هذه المصادر في المتن الأصلي بالاسم والجزء والصفحة فقط دون بيانات النشر).*

[26] محمود بن عبد الرحيم صافي، **الجدول في إعراب القرآن الكريم**، مصدر سابق، ج ٨، ص ٢٧٩.

وتؤدي هذه الصور البيانية وظيفة تتجاوز الزخرفة اللفظية؛ فهي تقرب المعاني الكونية إلى ذهن المتلقي، وتدفعه إلى التأمل في مظاهر القدرة الإلهية.[27]

ومن خلال الشواهد السابقة، يتبين أن الاستلزام الحواري في مبدأ الكيف يتداخل مع عدد من الظواهر البلاغية، ولا سيما التشبيه والاستعارة والكناية والتصوير. فهذه الأساليب لا تقدم المعنى بصورة مباشرة دائماً، بل تستدعي من المتلقي الانتقال من الدلالة الظاهرة إلى الدلالة المقصودة، اعتماداً على السياق والقرائن اللغوية والبلاغية. ومن ثم فإن خرق مبدأ الكيف لا يعني بالضرورة غياب الصدق، بل قد يكون وسيلة تعبيرية لإيصال معنى أعمق من المعنى الحرفي، وتحقيق أثر دلالي وتأثيري في المتلقي.

رابعاً: مبدأ العلاقة

يُعرف مبدأ العلاقة أيضاً بمبدأ الورود أو الملاءمة أو المناسبة، ويقوم على ضرورة أن يكون الكلام مرتبطاً بالموضوع الذي يدور حوله الحديث، وأن تتناسب المعلومات المقدمة مع المقام الذي ترد فيه. ويقتضي ذلك أن تكون مساهمة المتكلم ذات صلة بالسياق، وأن يؤدي كلامه وظيفة واضحة في التواصل.

ويتقاطع هذا المبدأ مع ما قرره البلاغيون في مفهوم مطابقة الكلام لمقتضى الحال، مع مراعاة الفصاحة؛ إذ لا تتحقق فاعلية الخطاب بمجرد سلامة تراكيبه، وإنما تتطلب أيضاً ملاءمته للموقف الذي يُستخدم فيه.[28]

وبحسب ما توصل إليه البحث، لم يُعثر على شاهد واضح لخرق هذا المبدأ في آيات الإعجاز التي جرى تحليلها؛ إذ إن الخطاب القرآني يتسم بالترابط الدلالي والملاءمة بين عناصره، الأمر الذي يجعل العثور على مثال يحقق خرقاً صريحاً لمبدأ العلاقة أمراً نادراً في هذا النوع من الخطاب.

[27] المصدر نفسه، ج ٨، ص ٢٠١–٢٠٢.

[28] الخطيب القزويني (ت ٧٩٣هـ)، **الإيضاح في علوم البلاغة**، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ط٣، ١٤١٣هـ–١٩٩٣م، ص ١٢؛ ومحمد بن علي السكاكي (ت ٦٢٦هـ)، **مفتاح العلوم**، ضبطه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ–١٩٨٧م، ص ١٦٩.

خامساً: مبدأ الطريقة

يختلف مبدأ الطريقة عن المبادئ السابقة في أنه لا يتعلق بمضمون الكلام أو صدقه أو علاقته بالموضوع، بل يهتم بكيفية تقديمه وصياغته. ويقتضي هذا المبدأ أن يكون التعبير واضحاً ومنظماً، وأن يتجنب المتكلم الغموض واللبس والإطناب غير الضروري، مع مراعاة ترتيب الأفكار بما يساعد المتلقي على فهم الرسالة.

ويشمل هذا المبدأ مجموعة من التوجيهات، من أبرزها تجنب التعبير الغامض، والابتعاد عن الالتباس، وعدم الإطالة التي لا تقتضيها طبيعة المقام، فضلاً عن تنظيم الكلام وترتيب عناصره بصورة تسهل عملية التأويل.[29]

ومن الشواهد القرآنية التي يمكن تحليلها في ضوء مبدأ الطريقة قوله تعالى في سورة النور:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ (النور: ٤٣)

وقد لاحظنا هذا الخرق في الخطاب القرآني في بداية النص إذ تصدر القول (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا)، فالاستفهام فيه تنبيه وتقرير بصيغة السؤال ولفت النظر إلى بعض مشاهد قدرة الله وملكوته ونواميس كونه وخضوع خلقه له. وتقرير كونه هو الذي يخلق كل شيء، والقادر على كل شيء، والمحيط علمه بكل شيء، وإليه مرجع كل شيء[30]، فالمتكلم سبحانه في هذا النص يضع السامع بغموض وبحث عن معنى اللفظ، والمعنى هنا (يسوق سحابًا)، إذ يحتمل هذا اللفظ اكثر من معنى و(منه البضاعة المزجاة التي يزجيها كل أحد وإزجاء السير في الإبل الرفق بها حتى تسير شيئا فشيئا) .

فالمتكلم وان خرق احد مبادئ التعاون، فأنه متعاون مع المبدأ التخاطبي العام مع المخاطب فهو يعطيه حافزا ومثيرا للبحث عن المعنى المضمر ما يضمن له مشاركة فاعلة في الخطاب يتوصل عبرها الى فهم المعنى الضمني المستلزم للمعنى الحرفي، وهنا ما يسمى بفن العنوان: في قوله تعالى (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحاباً)، فهو فن انفرد به القليل من علماء البيان، (وعرفوه بأنه أن يأخذ المتكلم في غرض له، من وصف أو فخر أو مدح أو عتاب أو

[29] العياشي أدواري، **الاستلزام الحواري في التداول اللساني**، مصدر سابق، ص ١٠٠؛ وفرانثيسكو يوي راموس، **مدخل إلى دراسة التداولية: مبدأ التعاون ونظرية الملاءمة والتأويل**، ترجمة: يحيى حمداي، دار نيبور، ط١، ٢٠١٤م، ص ١٠١-١٠٢.

هجاء، أو غير ذلك من الفنون، ثم يأتي لقصد تكميله، وتوكيده، بأمثلة من ألفاظ تكون عنوانات لأخبار متقدمة وقصص سالفة) [31].

وبالإمكان بيان التحليل حسب اعمال الاستلزام على النحو الآتي:

الاقتضاء	ينبغي على الانسان يدرك قضية مهمة في الاعجاز والتي تمثلت بتكوين السحابة التي تصعد من البحار عن طريق البخار لتكون سحابة متراكمة بعض مع بعض ثم عن طريق عوامل اخرى فينزل المطر، وفهم هذا الامر في ضوء قواعد التخاطب الحواري الذي اسسه المتكلم وبث فيه خرق المبدأ.
الاستلزام الحواريّ	المعنى الصريح: (أَلَمْ تَرَ) (الهمزة) للاستفهام، وعلامة الجزم في (تر) حذف حرف العلّة، والرؤيا هنا بصرية المعنى الضمنيّ: أطلق الإزجاء على دنو بعض السحاب من بعض بتقدير الله تعالى الشبيه بالسوق حتى يصير سحابا كثيفا، فانضمام بعض السحاب إلى بعض عبر عنه بالتأليف بين أجزائه
خرق القاعدة	قاعدة الطريق: خرق بالاستفهام والغموض.
القوة الانجازية	طلب انجاز من الناس المشاهدة ببصرهم، عظيم قدرة الله
القوة التأثيرية	تأثير ذهني يعبر عن مظاهر قدرة الله ونواميسه الكونية وإحاطته

الخاتمة

جاءت هذه الدراسةُ لتأكيدِ أنَّ القران الكريم واعجازه فيه الكثير من الموضوعات بحاجة الى دراسة واستظهار كنزه اللغوي في ضوءِ الدارسات اللسانية واللغوية ومنها التداولية عامة والاستلزام الحواري خاصة بوصفها أبعادًا لسانيّةً معاصرةً

في هذا البحث حضرت التفاصيل البلاغية بمعالجات تداولية عن طريق الاختراقات لما فيه من بعدٍ تواصليّ استعمالي، وهذا كان سَبْيلًا وَاضِحًا في الوصولِ إلى قَصْدِ المُتَكَلّم وإرَادَتِه في إفْهَامِ الْمُتَلَقيّ.

بما أنّ التداولية علم لساني يبحث في كيفية استعمال المرسل اللغة في تحقيق أعلى درجات نجاح التواصل مع المرسل اليه، فكان أنسب موضوع لدراسة آيات الاعجاز بصورة جديدة هو الاستلزام؛ لأنّه نشاط تواصلي قائم على تحويل السياق اللغوي إلى وظائف تواصلية إنجازية وتأثيرية .

والملاحظ في دراسة الاستلزام يقع على عاتق المرسل تحميل التعابير الوظيفة الاتداولية ؛ باستعماله المبادئ في مقام معين ؛ ويساعده في ذلك عوامل السياق ومنها المرسل والمرسل إليه والزمان والمكان، وقد كان المرسل سبحانه وتعالى في خطابه دقيقا، فجاء استعمالها موفقاً، لأنّ منتج الخطاب هو الله سبحانه وتعالى .

استعان القرآن الكريم بالاستدلال البلاغي من ايجاز واطناب وتشبيه واسهاب واستفهام في توصيل الافكار التي تحملها آيات الاعجاز، ووظّفه في صياغة مقننة، واسلوب فيه طاقته لغوية، فكان طريقه إلى العقل هو ذات الطريق إلى القلب؛ إذ جمع بين الغرض الديني، والغرض الفني الجمالي بأسلوب استلزامي قادر على التأثير في متلقيه.

إنّ هناك تناسباً دلاليا في الخطاب الموجه كشفت عنه الخروقات في المبادئ؛ ولعلّ السبب في ذلك يرجع إلى أغراض ومقاصد المتكلم من إجراء الخطاب، والصورة التي يريد أن يتركها في ذهن المخَاطب وكل ذلك يسهم في خدمة العملية التخاطبية .

المصادر

(١) أحمد كنون، التداولية بين النظرية والتطبيق، دار النابغة للنشر والطباعة، مصر، ط١، ٢٠١٥م، ص ٩١.

(٢) فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة: د. سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، ط١، ١٩٨٦م، ص ٢١.

(٣) صلاح إسماعيل، نظرية المعنى في فلسفة بول غرايس، دار القباء الحديثة، ط١، ٢٠٠٧م، ص ٧٨.

(٤) محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، مصر، (د.ط)، ٢٠٠٢م، ص ٣٤؛ وينظر: د. طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، ط٢، ٢٠٠٠م، ص ١٠٣.

(٥) العياشي أدواري، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، منشورات الاختلاف، بيروت، ط١، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م، ص ٩٨.

(٦) أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية: مدخل نظري، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط٢، ٢٠١٠م، ص ٢٦-٢٧؛ وينظر: العياشي أدواري، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، مصدر سابق، ص ٩٩-١٠٠.

(٧) د. طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء، ط٣، ٢٠١٢م، ص ٢٣٨.

(٨) العياشي أدواري، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، مصدر سابق، ص ٩٨.

(٩) نادية رمضان النجار، الاتجاه التداولي والوظيفي في الدرس اللغوي، مؤسسة حورس الدولية، ط١، ٢٠١٣م، ص ٨١.

(١٠) د. مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م، ص ٣٤.

(١١) روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م، ص ٤٩٥.

(١٢) شاهر الحسن، علم الدلالة السمانتيكية والبراجماتية في اللغة العربية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمّان، ط١، ٢٠٠١م، ص ١٦٩.

(١٣) أبو الحسن الواحدي (ت ٤٦٨هـ)، التفسير البسيط، تحقيق: عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١، ١٤٣٠هـ، ج ٢، ص ٢٣١–٢٣٢.

(١٤) الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣هـ)، التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، الدار التونسية للنشر، تونس، ط٢، ١٩٨٤م، ج ١، ص ٣٣٥.

(١٥) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ–١٩٩٧م، ج ١، ص ٣٥–٣٦.

(١٦) بان الخفاجي، مراعاة المخاطب في النحو العربي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٨م، ص ٦٧–٦٨.

(١٧) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مصدر سابق، ج ١١، ص ١٥٥.

(١٨) عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ط١، ١٩٨١م، ص ٣٣٢.

(١٩) محمود بن عبد الرحيم صافي (ت ١٣٧٦هـ)، الجدول في إعراب القرآن الكريم، دار الرشيد، دمشق، ومؤسسة الإيمان، بيروت، ط٤، ١٤١٨هـ، ج ٦، ص ٧٣.

(٢٠) عمّارية حاكم، الخطاب الإقناعي في ضوء التواصل اللغوي: دراسة لسانية تداولية في الخطابة العربية أيام الحجاج بن يوسف الثقفي، دار العصماء، دمشق، ط١، ٢٠١٤م، ص ٢٧٥.

(٢١) ينظر: عادل فاخوري، تيارات في السيمياء (أو ما أشار إليه الباحث في مبحث مبدأ الكيف)؛ ود. طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، مصدر سابق؛ وشاهر الحسن، علم الدلالة السمانتيكية والبراجماتية في اللغة العربية، مصدر سابق. (ملاحظة منهجية: البيانات التفصيلية لكتاب عادل فاخوري لم ترد في المسودة الأصلية وتستوجب الإضافة عند الطباعة النهائية).

(٢٢) استُخلصت هذه الدلالة التفسيرية من سياق المثل في المصادر الموثقة في الهامش اللاحق.

(٢٣) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية، ط٢ مزيدة ومنقحة، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م، ج ١، ص ٣١٤-٣١٥؛ وأبو منصور محمد بن محمد الماتريدي (ت ٣٣٣هـ)، تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، تحقيق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، ج ٧، ص ٤٤٣؛ ومحمود بن عبد الرحيم صافي، الجدول في إعراب القرآن الكريم، مصدر سابق، ج ١٧، ص ١٥٠.

(٢٤) أبو زيد عبد الرحمن الثعالبي (ت ٨٧٥هـ)، جواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ، ج ٧، ص ١١٠؛ ومحمود بن عبد الرحيم صافي، الجدول في إعراب القرآن الكريم، مصدر سابق، ج ١٨، ص ٢٧١.

(٢٥) ينظر: محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن وبيانه، ج ٨، ص ٥٣٧؛ والقرآن وعلم النفس، ص ١٢٦؛ وأصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، ج ١، ص ٤٩٢. (ملاحظة منهجية: وردت هذه المصادر في المتن الأصلي بالاسم والجزء والصفحة فقط دون بيانات النشر).

(٢٦) محمود بن عبد الرحيم صافي، الجدول في إعراب القرآن الكريم، مصدر سابق، ج ٨، ص ٢٧٩.

(٢٧) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٢٠١-٢٠٢.

(٢٨) الخطيب القزويني (ت ٧٩٣هـ)، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ط٣، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، ص ١٢؛ ومحمد بن علي السكاكي (ت ٦٢٦هـ)، مفتاح العلوم، ضبطه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، ص ١٦٩.

(٢٩) العياشي أدواري، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، مصدر سابق، ص ١٠٠؛ وفرانشيسكو يوي راموس، مدخل إلى دراسة التداولية: مبدأ التعاون ونظرية الملاءمة والتأويل، ترجمة: يحيى حمداي، دار نيبور، ط١، ٢٠١٤م، ص ١٠١-١٠٢.